التصور القرآني للاجتماع الإنساني: مقاربة منهجية

محمد الحسن بريمة إبراهيم

معهد إسلام المعرفة/جامعة الجزيرة

1- مقدمة

التقدم المعرفي للإنسان، لا سيما في مجال فلسفة العلوم، أبرز الدور المحوري الذي تلعبه الرؤية الكونية، أو رؤية العالم (Worldview) في تشكيل المقاصد الحياتية للأفراد والمجتمعات والحضارات، وفي التشكيل العقلي والوجداني للافراد والجماعة، ومن ثم كم ونوع الفعل الاجتماعي الناجم عن ذلك التشكّل، والمردود والناتج العملي المتحقق من وقعه في هذا الكون المسخّر للإنسان.

إن رؤية العالم لأي مجتمع، أو جماعة، أو فرد، ينبغي أن تكون قادرة، على المستوى المعرفي، أن تجيب على الأسئلة الآتية:

أولاً : كيف يعمل هذا العالم بما فيه من سماوات وأرض وحياة وإنسان وعقل ومجتمع؟ كيف بُني هذا العالم؟ من هم البشر؟

ثانياً : لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء؟ من أين جاء الإنسان؟

ثالثاً : إلى أين نحن سائرون؟ كيف يبدو المستقبل الإنساني، وكيف يُختار بين مساراته المستقبلية المختلفة؟

رابعاً : ما هو الحق وما هو الباطل؟ ما هو الخير وما هو الشر؟

هذا المكوّن من رؤية العالم يتعلق بنظرية القيم، لا سيما القيم الأخلاقية ونظام الأحكام الذي يحدد أفعل ولا تَفعل. هنا أيضاً تتحدد المقاصد التي توجه الأفعال، وإجابات على لماذا؟ ومن أجل ماذا؟

خامساً : كيف يتصرف الإنسان؟

هذا المكوّن معني بالفعل الاجتماعي كوسيلة لتحقيق المقاصد والأهداف، والخطط التي يضعها الإنسان.

سادساً : الخطط والفعل الاجتماعي يحتاج تنفيذها إلى علم ومعلومات، ونظريات ونماذج تصف الظواهر الاجتماعية والطبيعية التي يواجهها الإنسان. لذلك فالسؤال المهم هنا هو كيف نتحصل على العلم؟ وهو سؤال يتعلق بنظرية المعرفة، من حيث المصدر ومن حيث المحتوى والمنهجية.

سابعاً : إن رؤية العالم لا تبنى من لا شيء بل لابد لها من مكونات أولية ولبنات هي مادتها الخام التى تبنى بها. في إطار النموذج التوحيدي الإسلامي فإن المكونات الأساسية للبناء سوف نجدها في الوحي الكريم، قرآناً وسنة صحيحة، والكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي، والتراث العلمي الإسلامي والكسب العلمي الإنساني.

هذه الورقة الإطارية معنية بتحديد الأصول الكلية التي ينشأ منها ويتأسس عليها الاجتماع الإنساني، أو الظاهرة الاجتماعية بتعبير آخر، بحسب التصور القرآني، معتمدين في ذلك على قراءة معرفية في نصوص الوحي، ثم في إطارها نحدد أصول الاجتماع الإسلامي، لننتقل بعد ذلك إلى استخلاص أصول المقاصد الشرعية من أصول الاجتماع الإسلامي. ونقصد بالاجتماع الانساني، أو بالظاهرة الاجتماعية، مجموع التجليات المجتمعية

، فردية وجماعية، الناجمة عن التدافع البشري في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم منها. وسوف تتبين أبعاد هذا التعريف فيما يلي من صفحات إن شاء الله.

2- التصور القرآني لأصول الاجتماع الإنساني

المدخل المنهجي ويمكن تأسيسه على الآتي:

1/ نزول القرآن منجماً

نزل القرآن منجماً (متفرقاً)، آيات وسوراً، على الظاهرة الاجتماعية في تجلياتها المختلفة عبر مكان هو الجزيرة العربية، وعبر زمانٍ جاوز العشرين عاماً من أوائل القرن السابع الميلادي، حتى إذا توحدت متفرقات هذه الظاهرة في إطار دين التوحيد كمل الدين، وأعيد ترتيب ما نزل متفرقاً من آيات القرآن ترتيباً توقيفياً، فتوحدت جميعها في إطار كتابٍ هو القرآن الكريم. وقد أثبت العلماء لهذا الكتاب خصائص أساسية منها: وحدته البنائية، وحدته الموضوعية، إطلاق معانيه، عالميته، شموله، خلوده، واستيعابه وتجاوزه للكتب السماوية التي سبقته.

النتيجة المنهجية الأولى التي نرتبها على ما سبق هي أن ما ثبت من خصائص معرفية للقرآن الكريم لابد أن يكون لها ما يعادلها من خصائص كونية في الظاهرة الاجتماعية التي تنزل عليها متفرقاً لتفرقها، حتى إذا توحدت شرعة ومنهاجاً توحد القرآن كتاباً. فهو بهذا المعنى معادل لها معرفياً، ويشمل ذلك تفاعلها مع محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. سوف نرى أن الوحدة البنائية للقرآن تبرز وحدة بنائية مكافئة في الظاهرة الاجتماعية حيث لها متغيرات (بالمعنى الرياضي) كونية هي أصولها التي تتفرع عنها وتتسق حولها جزئيات هذه الظاهرة. وسوف يتضح لنا أن هذه المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية هي نفسها الأصول التي بنيت عليها المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. كذلك فإن التفاعلات الكلية بين هذه المتغيرات تقابلها تماماً التقسيمات الكلية المعهودة لأحكام الشريعة الإسلامية.

سوف يتضح من التحليل النظري أن عالمية القرآن وخلوده تستمد شرعيتها العملية من عالمية هذه المتغيرات الحاكمة للظاهرة الاجتماعية، من حيث أنها هي المسئولة عن هذه الظاهرة أينما وجدت، عبر التاريخ والجغرافية، وأن القرآن الكريم بنى حولها في تفاعلها الداخلي، وفيما بينها وبين محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. لهذا كان القرآن للناس كافة، بشيراً ونذيراً، وأنه يهدي للتي هي أقوم.

النتيجة المنهجية الثانية لتنجيم القرآن هي أن تنزله تاريخياً على الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة في الزمان والمكان، مع اتصافه بالخلود والعالمية، يعني بالضرورة أن تلك الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة تقوم على متغيرات أساسية تشترك فيها مع أي ظاهرة اجتماعية أخرى، في أي زمان ومكان، ومن ثم تتنزل عليها أحكام القرآن بمقتضى خواص الخلود والعالمية والاستيعاب. ومن البديهي أن يبحث عن هذه المقومات الأساسية المشتركة للظاهرة الاجتماعية في القرآن الذي يعادلها معرفياً ويستوعب حركتها في كل الأحوال.

2/ الزوجية في الحياة

قوله تعالى: (**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ..**) (النساء:1)، يفيد أن الظاهرة الاجتماعية، في كلياتها وأجزائها غير المتناهية، إنما انبثقت في مبتدئها من تفاعل زوجين اثنين(ذكر، أنثى) فقط ، إذ إن كلمة بثّ تفيد الانتشار المجتمعي وليس مجرد التناكح

والتناسل. لابد إذن من أن تكون الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية قادرة على أن تفسّر كيف تم هذا البث ومن تفاعل زوجين أثنين فقط، وما هي السنن الضامنة لهذا البث في تجلياته المختلفة عبر الزمان والمكان.

3/ مقاصد الشريعة الإسلامية

أكد علماء الشريعة أن الشريعة الإسلامية تدور أحكامها جميعاً حول حفظ الضروريات الخمس : (الدين، النفس، العقل، النسل، المال). إن المعلوم من الدين بالضرورة أن الشريعة الإسلامية تحيط بالظاهرة الاجتماعية في جميع أجزائها وتجلياتها، في كل زمان ومكان، توحيداً لشعاب الحياة المتجددة أبداً في دين التوحيد.

نستنتج من ذلك أن ضبط الأحكام الشرعية لجزئيات الظاهرة الاجتماعية إنما القصد منه ضبط الكليات الخمس في إطار التوحيد، وأن أي انفلات لهذه الجزئيات يرجع إلى انفلات من نوع ما لهذه الكليات عن مسارها التوحيدي. إذن انضباط جزئيات الظاهرة الاجتماعية أو انفلاتها عن التوحيد يرجع من حيث العلة الظاهرة إلى انضباط أو انفلات كل أو بعض هذه الكليات الخمس عن منهج الله.

سوف يتبين لنا من خلال بسطنا لنظرية الظاهرة الاجتماعية المستمدة من القرآن الكريم أن ما اتفق عليه علماء الشريعة من كليات خمس عليها مدار الشريعة، مع إبدال منهجي لـ "الإيمان" بـ "الدين" و "العلم التوحيدي" بـ "العقل"، إنما هي في حقيقة الأمر المتغيرات (بالمعني الرياضي) الضرورية التي تتفاعل فيما بينها لإنتاج الظاهرة الاجتماعية التوحيدية، عبر الزمان والمكان، أي التي تدخل جميع أجزائها في السلم، وهذا هو مراد الشارع من وضع الشريعة. لكن إذا أضفنا إلى المتغيرات الخمسة أعلاه متغيري "متاع الحياة الدنيا" و "الهوى" أمكننا تفسير الظاهرة الاجتماعية في جميع تجلياتها، أي في حالة دخولها في السلم كافة (التوحيد)، وفي حالة خروجها من السلم كافة (الكفر)، وما بينهما (الشرك).

4/ الخلق

قول الله تعالى: (**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) (الروم:30)، يدل على أن الدين الحق، بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان، وشريعته التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة (الخلقة) البشرية التي فطر (خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتجلياتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن؟ وما هي تجلياتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) (الصافات:96)، ثم كيف يكون دين التوحيد الحق (قرآنا وسنة) معادلاً في حقيقته وشريعته لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

أولاً : ثنائية الخلق من الجسد الطيني والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى : (**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ❖ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**) (الحجر : 27- 29).

ثانياً : ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها: (**ونفس وما سواها ❖ فألهمها فجورها وتقواها ❖ قد أفلح من زكاها ❖ وقد خاب من دساها**) (الشمس : 6- 10). خصائص الفجور في النفس تمثلت في صفات فطرية مثل الشح (**وأحضرت الأنفس الشح**) (النساء:128)، والهلع (**إن الإنسان خلق هلوعا**) (المعارج:19)، والضعف (**وخلق الإنسان ضعيفا**) (النساء:28)، والعجلة (**خلق**

الإنسان من عجل) (الأنبياء:37)، والبخل (**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**)، والكبر (**إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه**)، والحسد (ومن شر حاسد إذا حسد) ... إلخ.

خصائص التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من خصائص الفجور. ومن صفات التقوى: الصبر، والعدل، والإحسان، والصدق، والشجاعة، والأمانة، والسخاء... إلخ.

ثالثاً : من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خصائص السمع والبصر والفؤاد (**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**) (النحل:78). وكذلك القدرة على كسب الجهل وترتكز هذه الصفة على فطرة الهوى في النفس (**لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ❖ أولئك كالأنعام بل هم أضل ❖ أولئك هم الغافلون**) (الأعراف:179)، (**وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**) (يوسف، 33).

رابعاً : زيّن للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: (**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا**) (طه:124)، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمنا ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.

خامساً : أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**) (الكهف:29)، وقال: (**خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين**) (النحل:4).

سادساً : جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأي بجانبه، كما في قوله تعالى: (**ضل من تدعون إلا إياه**) (الإسراء:67)، وفي قوله تعالى:(**إليه تجأرون**)(النحل:53)، وقوله تعالى:(**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**) (الأعراف:127).

لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط الفطري بالغيب. نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى النتيجة الآتية:

الظاهرة الاجتماعية بجميع مظاهرها في الزمان والمكان إنما هي التجليات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفاً مع كليات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، كما سوف نبيّن أدناه.

إذن قول الله تعالى إن الدين القيّم هو هذه الفطرة التي فطر الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أنه يعادلها معرفياً ويستوعب حركتها الجدلية في كل زمان ومكان، حيث يبيّن القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسّر "خطة الخلق العامة" [1] في عالم الشهادة وتجلياتها عبر التاريخ، ثم يبيّن مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

---

[1] - أنظر الصفحات التالية لمعرفة مضمون هذا المصطلح

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبنى على أصول التقوى في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فساداً: (**وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**) (الأنعام:151)، وقوله تعالى: (**وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**) (الأنعام:55). كل ذلك حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظلاّمٍ للعبيد.

سابعاً : نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقي من الوحي الكريم (إبستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية)، كما أن السنن الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي (أنطلوجيا الظاهرة الاجتماعية) لا يمكن أن تتعارض مع أحكام الوحي المتعلقة بها، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لحكمة التشريع الإسلامي، وعلله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما السنن الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

خطة الخلق العامة

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له وتحميله تكليفا أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد اخبرنا القرآن الكريم أن خطة الخلق العامة هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض قد تم اختبارها في الملأ الأعلى بمشاركة جميع الأطراف المعنية: الخالق سبحانه، الملائكة، البشر ممثلين في آدم وحواء عليهما السلام، والجن ممثلين في إبليس. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي لخطة الخلق العامة على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي لخطة الخلق العامة هذه وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الانساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه الرؤية الكونية الاسلامية هو مبدأ التوحيد: (قل هو الله أحد❖ الله الصمد❖ لم يلد ولم يولد❖ ولم يكن له كفؤا أحد)،(الإخلاص). فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي خلق الإنسان من الأرض وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى مآلات أمور الناس في الدنيا والآخرة فقال: (**إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج**

فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور❖ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (الحديد، **20- 21**).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية الاسلامية للظاهرة الاجتماعية المعبّرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً، إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)** (البقرة:36) ، **(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)** (الأعراف:25).

ثانياً، إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه على الأرض: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)** (الإسراء:70)، **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** (البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخلَف "الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخلِف "الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: **(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(الحجرات، 13)؛ (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء..)(النساء، 1)**.

ثالثاً، إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** (هود:61).

رابعاً، إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: **(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)** (الملك:2) . فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً، إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: **(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)** (الكهف:7).

سادساً، إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "**المال**" (موارد معدنية، زراعية، حيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة مضافة بفعل الإنسان) و"**البنون**" (علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة ... إلى شعوب وقبائل): **(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** (الكهف:46).

سابعاً، إن الابتلاء في "**المال**" و "**البنين**" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) (آل عمران:14).

ثامناً، إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال والبنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**) (الإنسان:3)، (**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ**) (الزمر:7).

تاسعاً، إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من دوافع الفجور والتقوى: (**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) (النحل:78)، (**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**) (العلق: 5)، {**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {8} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا {9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا {10}**} (الشمس:7- 10). ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بقيم التقوى الموجبة (الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق ... إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بقيم الفجور السالبة (الشح، البخل، الكبر، الحسد ... إلخ) فيكون كافراً: (**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**) (الكهف:29).

عاشراً، الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي؛ علم وإيمان وعمل صالح:

(1) علم بأمر المنعم(**الله تعالى**)، وعلم بالمنعم عليه(**الإنسان**)، وعلم بالنعمة(**المال، البنون**) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه.

(2) إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين.

(3) العمل الصالح الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضى المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (**لئن شكرتم لأزيدنكم**)(إبراهيم،7). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (**النفس، المال، البنون**) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده الروحي: (**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**)[لقمان: 34]. ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بالجسد المادي كما في قوله تعالى :(**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) [الكهف: 46] وهي علاقة (رجل – امرأة - أبناء). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً**) [النحل :72] . وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**) [الصافات : 149] .

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تجليات هذه العناصر منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: (**زين للناس حب الشهوات من ......والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث**).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه.

ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم المشرب، والعري الناجم عن عدم الملبس، والإضحاء الناجم عن عدم المسكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من إشباعها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "**النفس**" و "**المال**" و"**البنون**" من الأصول الكليّة لمقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، الصبر، العدل، الإحسان' السخاء. . .إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها.

فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1/ "**العلم بظاهر الحياة الدنيا**" وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم (**السمع، البصر، الفؤاد**)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق في عالم الشهادة.

2/ "**الهوى**" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "**النفس**" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "**المال**" و"**البنين**".

لما كان "**العلم بظاهر الحياة الدنيا**" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية (**النفس، المال، البنون**) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "**علم**

الخبر"- الوحي- من السماء فيتوحدا ، بمقتضى المنهجية التوحيدية ، ليكوّنا معا "**العلم التوحيدي**" الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"**النفس**" إما أن تتفاعل مع "**المال**" و"**البنين**" بمقتضى "**العلم التوحيدي**" **وأخلاق التقوى فيتحقق** "**الشكر**" لله تعالى، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "**الهوى**" **وأخلاق الفجور فيتحقق** بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة الجنس أدت إلى سكن الرجل إلى المرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "**النفس**" بمقتضى "**العلم التوحيدي**" أو"**الهوى**" مع "**المال**" و"**البنين**" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و "لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس

لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في استخدامها لزينة الحياة الدنيا.

إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) (إبراهيم:7)؛ (**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ** (النساء:147). ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس البشرية، والتي تتعلق بها أخلاق الفجور (الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد ... إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**) (هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ❖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) (الأعلى:16- 17)، (**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**) (الأنعام:32)، (**مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ**) (الشورى:20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**) (**المؤمنون:37**)

؛ أو قال: (**رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**) (صّ:**16** ، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: (**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**) (الحديد:20).

أما من قال: (**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) (**البقرة:201**)؛ أو قال: (**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**) (**غافر:39**)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة: (**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** (الحديد:21)، (**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ❖ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**) (القصص:60- 61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحي من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم (ﷺ) بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له والمتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تجلياته في السلم. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ

الإيمان والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ❖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: 1- 3)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)،(الإسراء:33)؛ و"البنين": (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ❖ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) (الأسراء31- 32)؛ و"المال": (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون)(البقرة:1889)؛ و"العلم": (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (الإسراء:36).

إن العلاقة بين **الأيمان** من جهة وبين **النفس، العلم، المال والبنون** من جهة أخري هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل الإيمان بوجهيه، العقدي(التوحيد) والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، و حفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام،وهو معنى قوله تعالى:(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله...)(الأنعام،153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتي فهم المعني الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات **(النفس، المال، البنون)** بمقتضى **"العلم التوحيدي"** وما يتعلق به من **أخلاق التقوى**، أو بمقتضى **"الهوى"** وما يتعلق به من **أخلاق الفجور**. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من **"الهوى"** الذي تتعلق به أخلاق ودوافع الفجور، وتمكيناً **"للعلم"** الذي تتعلق به أخلاق ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولى الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها **"الهوى"** فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة **"لا إله إلا الله"** إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف **"الله تعالى"** من قبل المستخلَف **"الإنسان"** فيما استخلف فيه **"الأرض"**. وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية هى الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط للتفاعل بين المتغيرات التي هى أصول الاجتماع الإنساني(**الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون**)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار **"الحياة الدنيا"** وخيار **"الدار الآخرة"** يمثلان رؤى كونية متباينة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا(**المال، البنون**)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي

تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توصف السياسات العلاجية المناسبة.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات و مؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور الاسلامي بتلخيصه في **نظام معرفي** يجمعه الرسم البياني في الشكل رقم(1)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. يتجاوز هذا النظام المعرفي الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنه يمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج الدنيوي. كذلك يمكّن من تأسيس علوم معيارية تتبني على تعظيم مقاصد الشريعة الإسلامية، في إطار النموذج التوحيدي، أو على تعظيم مقاصد المتاع الدنيوي في إطار النموذج الدنيوي.

إن هذا النظام المعرفي الشامل يتكوَن من نموذجين معرفيين معياريين هما، النموذج التوحيدي الذي يمثله عمود الصناديق في أقصي يمين الرسم، والنموذج الدنيوي الذي يمثله عمود الصناديق في أقصي يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوي التأثير من كلي النموذجين. الشكل رقم(2) يجسّم النموذج التوحيدي، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراته في إطار نظامه الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم(3) النموذج الدنيوي. ومن معطيات النموذج التوحيدي تأتي الاحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات النموذج الدنيوي تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)،أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات النموذجين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من النموذجين على النفس البشرية، حتى نفس المسلم.

إن جوهر النموذج التوحيدي هو الدالة التوحيدية(دالة الايمان) التي يمثل الإيمان متغيرها التابع (dependent variable)، ومتغيرات النفس المطمئنة؛ العلم التوحيدي؛ المال؛ البنون؛ متغيراتها المستقلة (Independent variable)؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد(Righteous Muslim) الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني(Rational) أيضا.

المؤمن الراشد، الساعي في جلب مصالحه ودفع المفاسد عن نفسه، في العاجل والآجل، هو الوحدة التحليلية الأساسية في نموذجنا الكلي هذا. فهو قد خلق في هذه الدنيا فرداً، وكلف فرداً، ويخرج منها فرداً، ويبعث يوم القيامة فرداً، ويحاسب عند ربه فرداً. هذا المؤمن الراشد تثبت في حقه جميع الصفات التي أثبتها له القرآن، ويكفي في ذلك قول الله تعالى: *(ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون)* (الحجرات، 7) . *(ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)*(الأنبياء، 51).

الأعمال الصالحة المعتبرة في نموذجنا هذا هي تلك التي تنجم عن التفاعل المولّد للظاهرة الاجتماعية التوحيدية، والذي يتم بين المتغيرات الضرورية الخمسة، الإيمان، النفس، العلم، المال، والبنون. هذا التفاعل عليه مدار المصالح المعتبرة التي بها قوام الحياة في الدنيا والفلاح في الآخرة، فهي الدافع الحقيقي الذي يدفع كل مؤمن للعمل. والأعمال الصالحة الأخرى في فضاء العمل الاجتماعي إن هي إلا متمم للأصل المعتبر، وتكون أهمية المصالح التي فيها بمقدار أهمية دورها في تحصيل المصالح الناجمة عن التفاعل الأوّلي أعلاه. الضرورات الحيوية (الجوع، العطش، العرى، الإضحاء، العنت الجنسي) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبيّن آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر النموذج الدنيوي هو الدالة الدنيوية(**دالة المتاع الدنيوي)** التي يمثل **المتاع الدنيوي** متغيرها التابع، وتمثل **النفس الفاجرة**؛ **الهوى**؛ **المال**؛ **البنون** متغيراتها المستقلة؛ فهى أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الانسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني(Rational).

الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو التجلي التاريخي الأتم **للنموذج التوحيدي**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصوله الكلية وتفاصيله الجزئية، ومن حيث مآلاته ونتائجه الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة هى التجلي التاريخي الأتم **للنموذج الدنيوي**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر الحياة الدنيا، لأصوله الكلية وتفاصيله الجزئية، ومن حيث مآلاته ونتائجه الحتمية.

شكل رقم (1)

نموذج معرفي قرآني للاجتماع الإنساني

الله جل جلاله

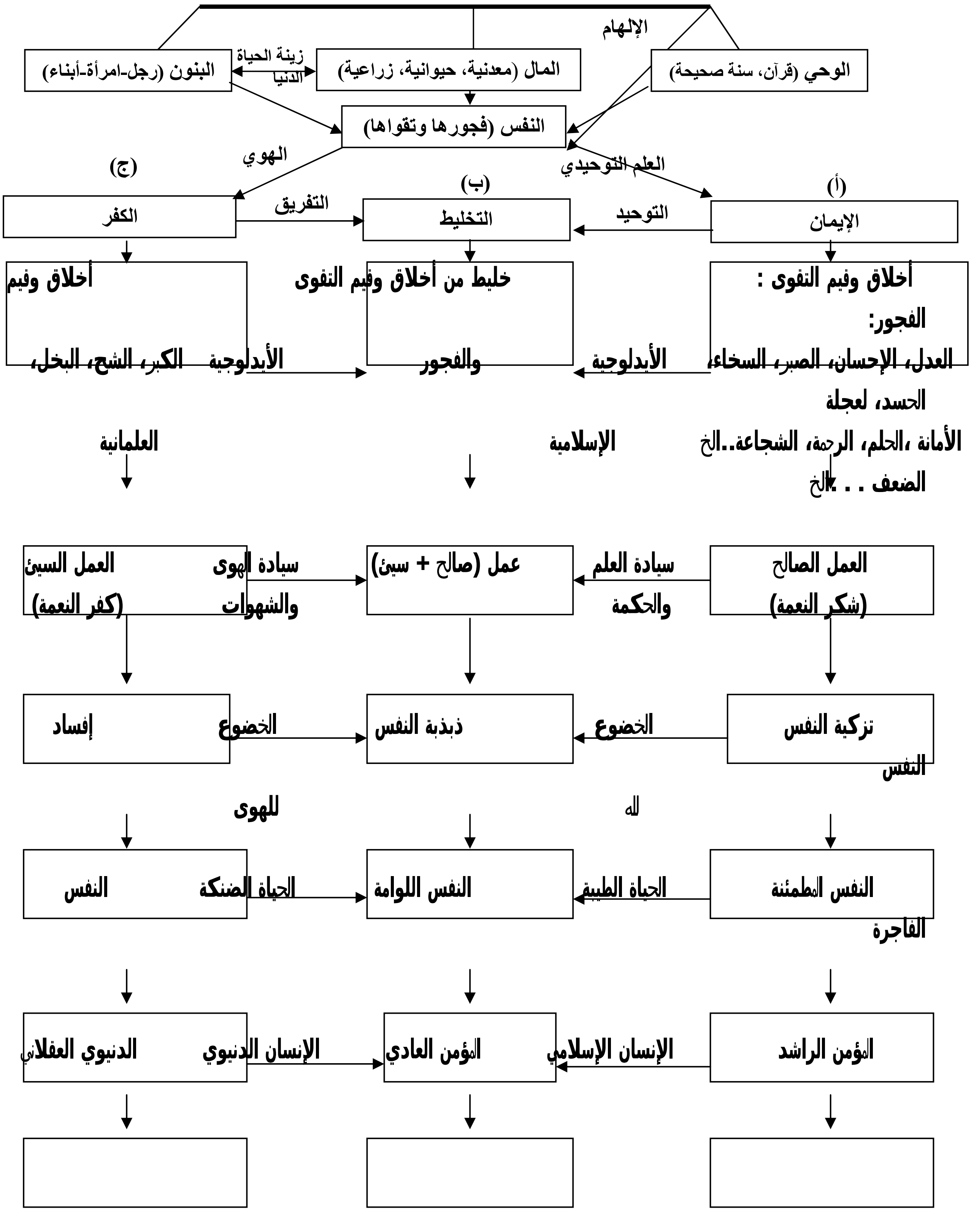

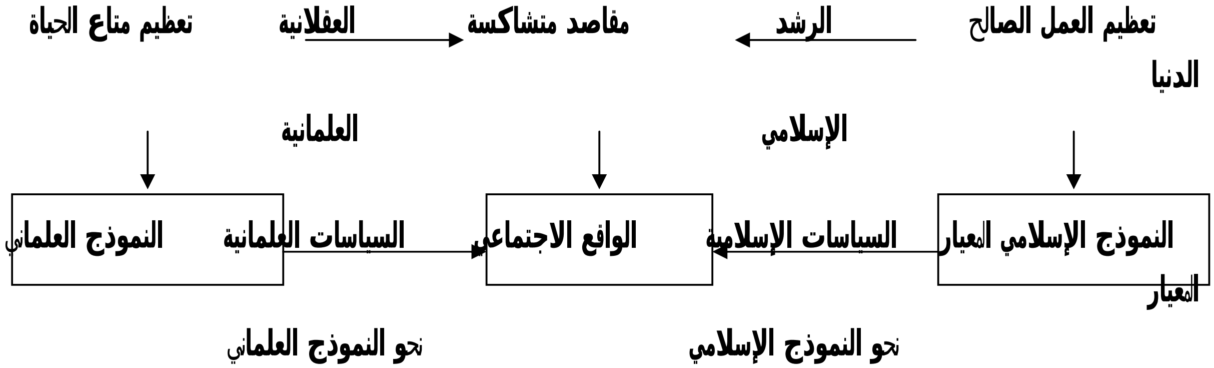
تعظيم العمل الصالح
الرشد
الإسلامي
مقاصد متشاكسة
العقلانية
العلمانية
تعظيم متاع الحياة الدنيا
النموذج الإسلامي المعيار
السياسات الإسلامية
نحو النموذج الإسلامي
الواقع الاجتماعي
السياسات العلمانية
نحو النموذج العلماني
النموذج العلماني المعيار

شكل رقم (2)

نموذج الاجتماع التوحيدي

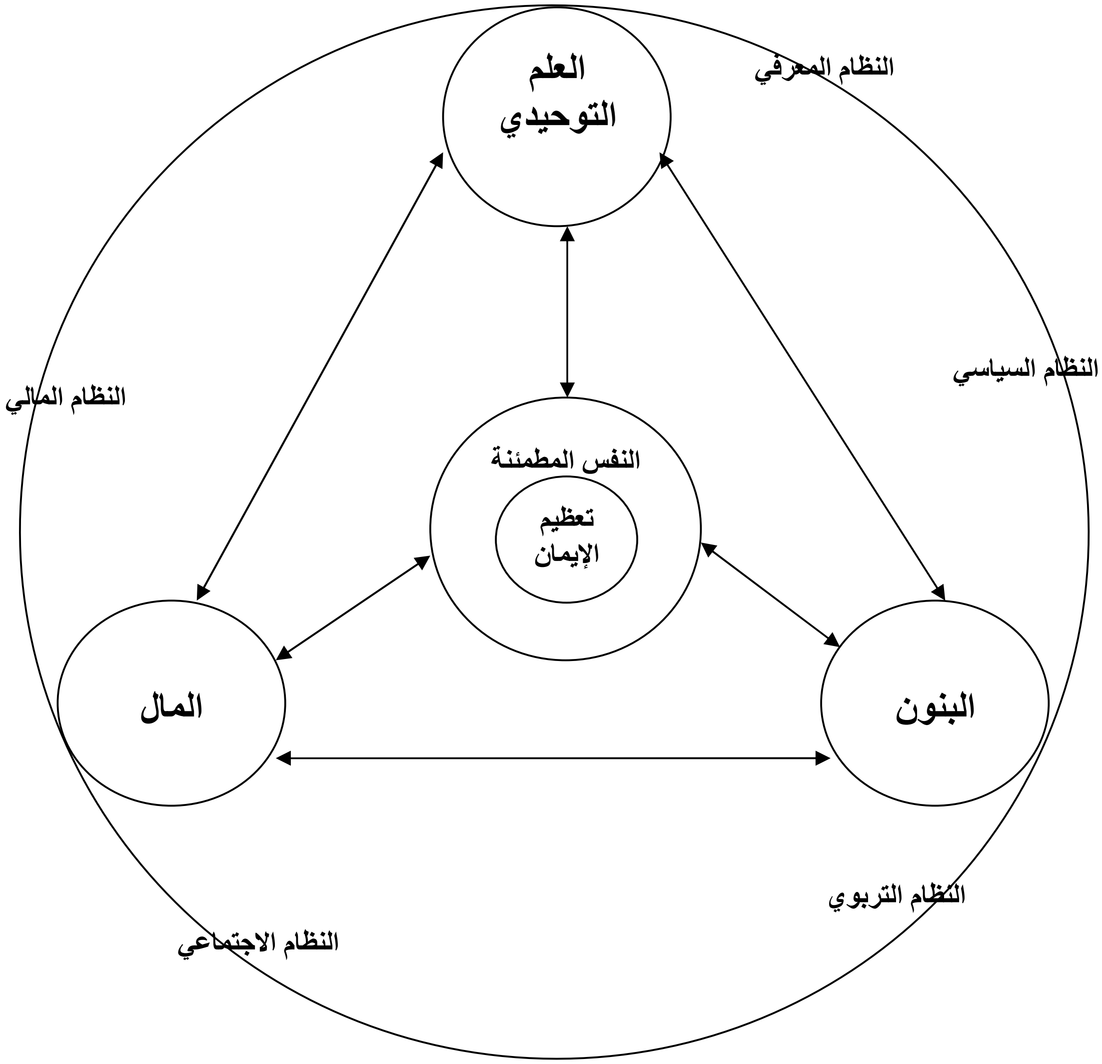

شكل رقم (3)

<u>نموذج الاجتماع الدنيوي</u>

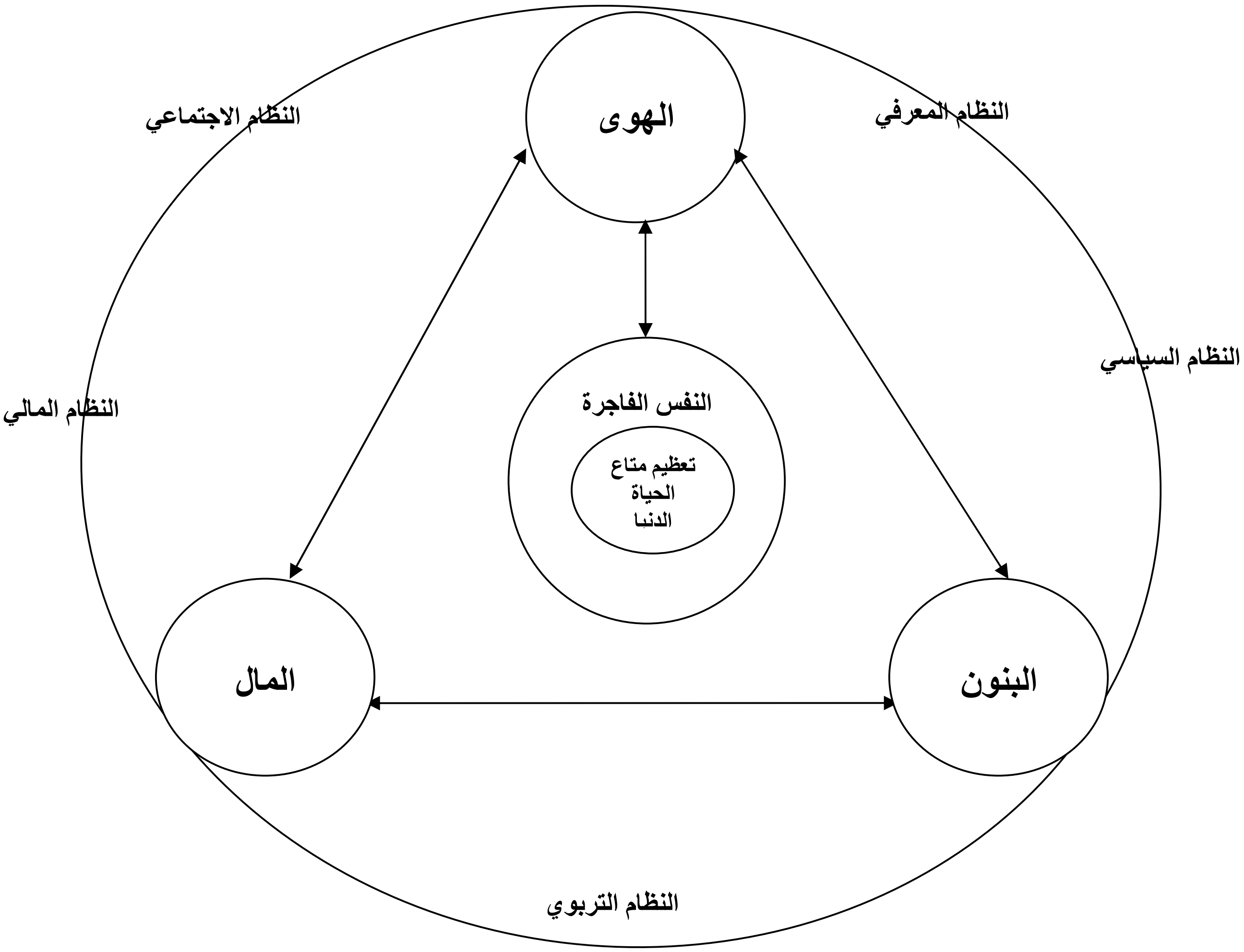

أصول الاجتماع الإسلامي والمقاصد الشرعية

بينت الرؤية الاسلامية في أصول الاجتماع الانساني أن هذا الاجتماع ينجم عن التفاعل بين سبعة متغيرات، إثنان منها تابعة وهى: "**الأيمان بالله**" و" **المتاع الدنيوي**"، وخمسة منها مستقلة وهى: " **النفس**"، " **العلم التوحيدي**"، "**الهوى**"، " **البنون**"، " **المال**". مجتمع التوحيد المعياري الخالص الذي يدخل في السلم كافة، ويمثله النموذج التوحيدي في يمين الرسم السابق، ينجم عن التفاعل بين خمسة متغيرات من المتغيرات السبع، وهي: (**الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، البنون، المال**)، ويحكمه مبدأ تعظيم الأيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا. المجتمع الدنيوي المعياري الخالص الذي يخرج من السلم كافة، ويمثله النموذج الدنيوي في أقصى شمال الرسم، ينجم عن التفاعل بين خمسة متغيرات من المتغيرات السبع، وهي: (**المتاع الدنيوي، النفس الفاجرة، الهوى، البنون، المال**)، ويحكمه مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا. أما المجتمع الذي يعبر عن الحالة العامة للواقع البشري على الأرض، الذي يخلط فيه الناس عملا صالحا وآخر سيئا، ويمثله نموذج التخليط في وسط الرسم، فينشأ من التفاعل بين جميع المتغيرات السبعة، ويقترب أو يبتعد عن مجتمع التوحيد الخالص بمقدار ضعف أو قوة أثر متغيري " المتاع الدنيوي" و"الهوى" في التفاعل. ونلاحظ أن هذا التفاعل السالب الذي قد يزيل أو يهدد بزوال مجتمع التوحيد قد يأتي من داخل مجتمع التوحيد نفسه عندما يغلب عليه، أفرادا وجماعة، إتباع " الهوى" وتعظيم "متاع الحياة الدنيا". وقد يأتي التهديد من الخارج، من المجتمع الدنيوي المغاير والمجاور، المحكوم أصلا باتباع "الهوى" وتعظيم " متاع الحياة الدنيا". إذن نقرر النتيجة الهامة الآتية:

مجتمع التوحيد يحفظ من جانب الوجود بقوة التفاعل بين أصوله الخمسة: (الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، البنون، المال)، ويحفظ من جانب العدم بحماية هذا التفاعل من التأثير السالب لمتغيري " المتاع الدنيوي" و "الهوى".

وسوف يتبين لنا أدناه أن مقاصد الشريعة الاسلامية تدور حول حفظ هذا التفاعل وحفظ أصوله المولدة له من جانب الوجود ومن جانب العدم، وأن أحكامها الشرعية هى وسيلتها لتحقيق تلك المقاصد.

اتفقت كلمة من كتبوا في مقاصد الشريعة الإسلامية قديماً وحديثاً على أن الشارع سبحانه قاصد بشريعته تحقيق مصالح العباد، ودفع الضرر والفساد عنهم في العاجل والآجل، فكل نص نزل وكل حكم شرع قصد به تحقيق مصلحة أو دفع مفسدة. ويُعرّف العز بن عبد السلام المصلحة والمفسدة فيقول : "المصالح أربعة أنواع : اللذات وأسبابها والأفراح وأسبابها. والمفاسد أربعة أنواع : الآلام وأسبابها والغموم وأسبابها. وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية". وحقيقة المصلحة أنها كل لذة ومتعة جسمية كانت أو نفسية أو عقلية أو روحية، وحقيقة المفسدة هي كل ألم وعذاب جسمياً كان أو نفسياً أو عقلياً أو روحياً". وينص الإمام الشاطبي على أن المصالح الحقيقية هي التي تؤدي إلى إقامة الحياة لا إلى هدمها، وإلى ربح الحياة الأخرى والفوز فيها، فيقرر: "المصالح المجتلبة والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية .. فالشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين من أهوائهم حتى يكونوا عبادا لله. وهذا المعنى إذا ثبت، لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس، وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربنا سبحانه: **(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)** (المؤمنون:71)".

ومن هنا جاء الشرع بوضع حدود وقيود على تحصيل مختلف المصالح والاستمتاع بها، لأن الإنسان باندفاعه وقصر نظره قد يحرص على مصلحة وفيها مفاسد، أو فيها تفويت مصالح أهم منها. وقد يفر من مفسدة قريبة فيقع فيما هو شر منها. وقد يطلب الراحة العاجلة فيجلب على نفسه – أو على غيره – عناءً طويلاً.

تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام، ضرورية، حاجية، وتحسينية.

1/ **المقاصد الضرورية:**

هي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، ويترتب على فقدانها اختلال وفساد كبير في الدنيا والآخرة. وبقدر ما يكون من فقدانها بقدر ما يكون من الفساد والتعطل في نظام الحياة.

2/ **المقاصد الحاجية:**

هي المصالح التي يتحقق بها رفع الضيق والحرج عن حياة المكلفين والتوسعة فيها.

3/ **المقاصد التحسينية:**

هي المصالح التي لا ترقى أهميتها إلى مستوى المرتبتين السابقتين، وإنما شأنها أن تتمّم وتحسن تحصيلهما، ويجمع ذلك محاسن العادت ومكارم الأخلاق والآداب.

حفظ الشريعة للمصالح الضرورية وغيرها يتم على وجهين يكمل أحدهما الآخر، وهما:

1- حفظها من جانب الوجود، أي بشرع ما يحقق وجودها وتثبيتها ويرعاه.
2- حفظها من جانب العدم، أي بإبعاد ما يؤدي إلى إزالتها، أو إفسادها، أو تعطيلها، سواء كان واقعاً أو متوقعاً.

قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل، موافقاً لقصده في التشريع. فإذا كانت الشريعة موضوعة لمصالح العباد فالمطلوب من المكلف أن يجرى على ذلك في أفعاله. ولما كان قصد الشارع المحافظة على الضروريات وما رجع إليها من الحاجيات والتحسينيات، وهو عين ما كلف به العبد، فلا بد أن يكون مطلوباً بالقصد إلى ذلك، لأن الأعمال بالنيات. ثم لما كان الإنسان مستخلفاً عن الله – في نفسه وأهله وماله وكلِّ ما وضع تحت يده – كان المطلوب منه أن يكون قائماً مقام من استخلفه يجرى أحكامه ومقاصده مجاريها.

مقاصد الشريعة الإسلامية تتأسس أصولها الكلية على الأصول الكلية للاجتماع الإسلامي التي ذكرت سابقا(**الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون،**)، والتفاعل بينها(**مجتمع التوحيد**). وهذه الكليات المقصدية هى: **حفظ الإيمان بالله، حفظ النفس، حفظ العلم التوحيدي(العقل)، حفظ المال، حفظ البنين(النسل)**. هذا على مستوى الفرد المسلم أما على المستوى الجمعي فإن الأصل هو **حفظ مجتمع التوحيد(الدين)**. ويتم هذا الحفظ على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني. ويتسع مفهوم الحفظ ليعني الإيجاد ابتداءً ثم النمو والتنمية المؤدية إلى الزيادة أو المانعة من النقصان. ويمكن تلخيص حفظ هذه الكليات بالشكل الذي يبرز علاقة الترابط بينها فيما يلي من أفكار.

حفظ الإيمان بالله تعالى على الدوام :

ويقصد به، من جانب الوجود، زيادة إيمان من آمن، ودعوة من لم يؤمن إلى الإيمان. ويقصد به، من جانب العدم، حماية إيمان من آمن مما يهدد بزواله أو نقصانه. ويتم حفظ الإيمان بحفظ مدخلاته الضرورية وهي: النفس، العلم، المال، البنون، مجتمع التوحيد.

حفظ النفس على الدوام :

ويقصد بالنفس هنا كل الإنسان في ثنائية تركيبته الحيوية الفيزيائية والنفسية الروحية. وتحفظ النفس، من جانب الوجود، بتوفير حاجاتها الحيوية من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح، وبتوفير حاجاتها المعنوية من العلم التوحيدي (المحقق للإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض)، ومن التربية التي تزكيها من أخلاق الفجور وتحققها بأخلاق التقوى. وتحفظ النفس، من جانب العدم، بحمايتها مما يؤدي إلى فسادها الحيوي أو يهدد بذلك كالقتل والفقر والمرض .. إلخ، وبحمايتها مما يؤدي أو يهدد بفسادها المعنوي كالجهل وتفشي الفحشاء والمنكر باتباع الهوى وتعظيم متاع الحياة الدنيا.

حفظ العلم التوحيدي على الدوام :

ويقصد بالعلم التوحيدي ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب ويحقق العمل الصالح في الأرض، ويتأتى من التفاعل بين علم الوحي وعلم الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي، ونطلق عليه اصطلاحاً "العلم التوحيدي" لأنه يتوحد في ذاته ويوحّد الحياة عبادة لله الواحد. ويحفظ العلم التوحيدي، من جانب الوجود، بتقوى الله وبالبحث العلمي في مصدريه، الوحي والكون، وبتطبيق حقائقه في التعرف على الكون الطبيعي والاجتماعي من أجل العمران، وإقامة الوزن بالقسط وعدم إخسار الميزان. ويحفظ، من جانب العدم، بحمايته مما يؤدي أو يهدد بزواله مثل اتباع الهوى و الشهوات من قبل العلماء، وغياب مقومات البحث العلمي، وعدم العمل بالعلم في الواقع الاجتماعي.

حفظ المال على الدوام :

ينقسم مفهوم المال في القرآن إلى قسمين: القسم الأول، هو البعد البيئي ويتعلق بالموارد الطبيعية والبيئة الداعمة لوجودها كما في قوله تعالى : (**فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقطبا، وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا وفاكهة وأبا، متاعاً لكم لأنعامكم**)، وفي قوله تعالى : (**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**)، أو في قوله تعالى : (**زين للناس حب الشهوات من ... والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث**).

القسم الثاني من المال، وهو البعد الاقتصادي ويتعلق بما عملته يد الإنسان في الموارد الطبيعية من قيمة مضافة حولتها إلى سلع نافعة له، كما في قوله تعالى : (**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**) {يس،35}، أو كما في آية : (زين للناس) السابقة، إشارة إلى اللذّات التي يحصلها الإنسان بعمله في تلك الموارد الطبيعية.

يحفظ المال في بعده البيئي، من جانب الوجود، بالنظر إلى الموارد الطبيعية باعتبارها رأس المال الطبيعي الذي يجب الحفاظ عليه بتنميته، وإصلاح ما أفسد الإنسان منه. ويحفظ من جانب العدم بأن يأكل الناس من عائدات استثماره، لا من أصله. بحيث لا يستغل من الموارد المتجددة إلا بمقدار قدرتها على تجديد نفسها، ولا يستغل من الموارد غير المتجددة إلا بمقدار ما يمكن تعويضه بالاستثمار في بدائل لها.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب الوجود، بإنشاء نظام اقتصادي يتأسس على مبادئ العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالإنتاج للطيبات في جانب العرض، وبتوظيف ما ينتج، في جانب الطلب. إما للاستهلاك المباشر، الخاص منه والعام، وإما للاستثمار وزيادة رأس المال، الخاص منه والعام أيضا، وبالالتزام بالأحكام الشرعية الضابطة للمعاملات الاقتصادية في كل الأسواق. وما ينتج للاستهلاك الخاص ينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ الإيمان والنفس والعلم والبنين من المال، على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني، أما ما ينتج لاستهلاك القطاع العام فينبغي أن ينضبط بمتطلبات حفظ مجتمع التوحيد، على المستوى الضروري والحاجي والتحسيني كذلك. وينبغي أن تستغل الموارد الطبيعية بصورة فعالة (efficient) ومثلى (optimal) في الإنتاج بحيث تلبي شروط حفظ البيئة الطبيعية المذكورة آنفا.

يحفظ المال في بعده الاقتصادي، من جانب العدم، بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي، سواء في مجال الإنتاج، أو الاستثمار، أو الاستهلاك، أو في الأسواق.

حفظ البنين على الدوام :

مفهوم البنين في القرآن الكريم، كما مفاهيم المال والنفس والعلم، مفهوم جامع يعبر عن علاقات كلية وتفصيلية تحيط بحقله الدلالي، فعلى المستوى الكلي يعبر المفهوم عن مطلق العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى، وما ينجم عن هذه العلاقة من أبناء، باعتبارهما شهوة تماثل شهوات القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث. أما على المستوى التفصيلي فتندرج تحت المفهوم علاقات زواج شرعية بين الرجل والمرأة وعلاقات زنا محرمة، و علاقات والدين وأبناء، وبنات وبنين وحفدة... إلخ.

ويمكن توليد مفاهيم عملية من مفهوم البنين نؤسس عليها مبدأ الحفظ، أحدها مفهوم كمّي وهو مفهوم **الناس** من حيث العدد، ويتأتى من العلاقة الجنسية بالتوالد والتكاثر. والمفاهيم الأخرى مفاهيم نوعية هي مفهوم **الشعب**، ومفهوم **القبيلة**، ومفهوم **الأمة**، أو الاجتماع الإنساني، ويتأتى من العلاقات الاجتماعية بين الناس، بدءاً من العلاقة الأسرية وانتهاءً بالعلاقات القومية والأممية. ويعبر مفهوم الشعب ومفهوم القبيلة عن علاقات تتأسس على آصرة العصبية للرحم أو الجنس أو اللسان،بينما يتأسس مفهوم الأمة على آصرة الولاء للعقيدة والفكرة الجامعة المتسامية فوق الأواصر العنصرية. ويجمع ذلك كله قول الله تعالى : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** {الحجرات، 13}. وتشير الآية إلى أن الآصرة الإثنية الحكمة منها هو التعارف، أما معيار التفاضل والكرامة فمحلّه آصرة العقيدة: **(إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)**.

يحفظ البنون، من حيث العدد، من جانب الوجود بالزواج الشرعي بين الرجل والمرأة، والتناسل والتكاثر، وبالالتزام بالضوابط الشرعية في الأفعال والأعمال المتعلقة بهذه العلاقة. ويحفظ البنون من جانب العدم بالابتعاد عن الزنى وعن إجهاض ووأد الأبناء وبالامتناع عن التبتل. ويدخل حفظ النفس من جانب الوجود ومن جانب العدم، كما بينا سابقاً، كعامل أساس في حفظ البنين في هذا البعد الكمّي للناس.

يحفظ البنون، من حيث الاجتماع الإنساني، من جانب الوجود بتأسيس نظام اجتماعي يقوم على **العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**، ويحفظ من جانب العدم بالإنتهاء والنهي عن **الفحشاء والمنكر والبغي**. ومفاهيم العدل، الإحسان، إيتاء ذي القربى، الفحشاء، المنكر والبغي هي مفاهيم قرآنية كلية جامعة تتسع لكل ما من شأنه صلاح النظام الاجتماعي.

حفظ مجتمع التوحيد على الدوام

مجتمع التوحيد الخالص(المعيار) يتأسس ابتداءً على التفاعل بين المتغيرات الكلية الضرورية، وهي: الإيمان، النفس المطمئنة، العلم التوحيدي، المال، البنون، ثم على بقية التفاعلات الجزئية المنبسطة في كل تفاصيل الظاهرة الاجتماعية التوحيدية. لأن هذه المتغيرات الخمسة هي أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية، فقد أصبحت بذلك أصل المصالح الشرعية؛ الضرورية والحاجية والتحسينية، فاستحقت أن تكون الكليات الخمس الشهيرة التي تتأسس عليها مقاصد الشريعة الإسلامية. ولكن التفاعل بين هذه المتغيرات في إطار الجماعة من المؤمنين، في الزمان والمكان، يقتضي قيام مجتمع التوحيد بترتيباته ونظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فأضحى بذلك حفظ نظام المجتمع ككل وسيلة ضرورية لحفظ أجزائه المكونة له. إن الدين، إن كان طرفه الأعلى هو الوحي الذي تكفّل الله تعالى بحفظه، فإن الدين في طرفه الأدنى هو التفاعل الحي بين المؤمنين في مجتمع التوحيد انفعالا بهدْي الوحي وحكمته و وقع ذلك في الحياة العملية، أي إنه جملة كسب المؤمنين من التديّن، إيمانا وعملا صالحا في زينة الحياة الدنيا، أفراداً وجماعة. إذن الدين في طرفه الأدنى هو مجتمع التوحيد المعني بالحفظ في مقاصد الشريعة الإسلامية، وحفظه لن يكون فقط بجهاد الأعداء من الخارج ولكن أيضاً بحفظ أصل نظمه الجزئية المكونة له من الداخل، وضمان أنها تعمل على أساس التوحيد، على الدوام. إذن لدينا خمسة أصول مقاصدية يتعلق حفظها بالفرد المؤمن ابتداءً (الإيمان، النفس، العلم، المال، البنون) ليتحقق توحيده وتطيب حياته، ثم وسيلة ضرورية تتجاوز الفرد إلى الجماعة، وهو مجتمع التوحيد(الدين). إنّ المتغيرات الخمسة، وإن كانت هي المؤسسة للمجتمع ابتداءً إلا إنه لا يتكّون من مجموعها، بل هو أكبر منها، فاستحق أن يكون حفظه ضروريا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. مثال هذا كمثال الجسد له أعضاء كثيرة متفاعلة ومتعاضدة ومتوافقة، وكل منها يؤدي وظيفة بعينها، ولكن يجمعها كلها الجسد الذي هو أكبر من مجموعها، ولو لم يحفظ في وحدته، لاختل نظامها وانفرط عقدها.

المتغيرات الضرورية المتفاعلة علي المستوى الفردي الجزئي، يقابلها على المستوى الاجتماعي الكلّي نظم جزئية (المعرفي، التربوي، المالي، الاجتماعي) تتفاعل داخلياً وفيما بينها ومع نظم جزئية أخرى مكملة لها، كالنظام السياسي، لتشكل في مجموع علاقاتها النظام الأتم لمجتمع التوحيد. ولأن من المستحيل تحليل جميع هذه التفاعلات الكليّة في وقت واحد فإن المنهجية الأوفق هي تحليل العلاقات الداخلية لكل نظام جزئي منفرداً، والتأكد من أنه يعمل وفق النظام التوحيدي الأشمل. ويلي ذلك تحليل العلاقات البينية للنظم الجزئية، ثم إن تيسرت وسائل التحليل أن ينظر في العلاقات البينية مجتمعة في إطار النظام الاجتماعي التوحيدي الشامل. إن الذي يضمن لنا التناغم بين جميع النظم الجزئية الضرورية المكونة للنظام الكلي هو تأسيسها في جميع تفاصيلها على مقاصد الشارع التي هي مقاصد المؤمن الراشد. إن الشريعة وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، ولكن العباد خلقوا لحكمة كلية هي عبادة الله التي أصلها إيمان وعمل صالح، مادته الابتدائية زينة الحياة الدنيا، وثمرته الشكر على تلك النعم. فالشكر هو القيمة الأخلاقية العملية والمقصد الأعظم الذي يتجلى

من خلاله إيمان المؤمن في فضاء العمل الصالح، وهو القانون الكلي الضامن لحفظ نظام المجتمع التوحيدي واستدامته. وتحت قانون الشكر تندرج جميع القيم الأخلاقية العملية الأخرى مثل الصبر والعدل والإحسان والصدق والأمانة... الخ، فهي تعمل في نظام المجتمع لينتهي أمره إلى حال من الشكر، يزيد النعمة ويديمها (الحياة الطيبة). وإذا كان الشكر ينطوي على علمٍ وحالٍ وعمل، فإن الجانب العملي يعني أن ينبني العمل على مقصد تحقق الحكمة من النعمة. فلابد إذن من أن تطرد حقيقة الشكر في جميع النظم الجزئية فتوحد بينها.

إن الله تعالى قابل بين الإيمان والكفر، وبين الشكر والكفر، فعلمنا أن الشكر هو الإيمان العملي: ***(إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا)*** (الإنسان ،3)، ***(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)***(النساء، 147)، ***(إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم)***(الزمر،7)، ***(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم)***(إبراهيم، 7). ويطرد هذا المعنى في جميع النظم الجزئية المقابلة للمتغيرات الضرورية، فالله تعالى يربط بين العلم وطلب الشكر:***(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)***(النحل،78). وربط بين نعمة المال وطلب الشكر: ***(وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)*** (إبراهيم، 37)، ***(وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون)***(الأعراف، 10)، ***(كلوا من رزق ربكم واشكروا له)***(سبأ ، 15). وربط كذلك بين البنين والشكر: ***(لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين)*** (الأعراف، 189). بل إن إبليس أخذ على نفسه عهداً أمام الله تعالى منذ الخلق الأول للإنسان أن يضل عباده في زينة الحياة الدنيا فلا يجد أكثرهم شاكرين: ***(وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرور)*** (الإسراء، 64)، ***(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)(الأعراف،17).***

وإذا انخرم قانون الشكر على المستوى الفردي أو الجمعي فإن نقيضه يسود، وفي هذه الحال قد يبتلي المؤمن بكل أو بعض العقوبات كالجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، والمطلوب تعبداً أن يتجلى الإيمان في القيمة الأخلاقية العملية المكملة للشكر وهي الصبر. فالمؤمن الراشد يتقلب على الدوام بين الشكر والصبر في بلاء زينة الحياة الدنيا، لكن الأصل أن يظل في حال من الشكر على نعم الله حرصاً على استدامتها، وإن دخل في ابتلاء الصبر يعجل بالخروج منه بسؤال الله العافية وبأخذه بالأسباب الرافعة للبلاء. وصبر المؤمن على البلاء هو توفيق من الله تعالى: ***(واصبر وما صبرك إلا بالله)*** (النحل،127)، فكان نعمة تستحق الشكر، فرجع الأمر كله إلى الشكر كما قال الإمام ابن قيم الجوزية في "مدارج السالكين". إن مجتمع المؤمنين الراشدين يقوم التنافس فيه على العمل الصالح والمسارعة إلى الخيرات والتسابق إلى مغفرة الله والطمع في التفاضل في درجات الآخرة، فإن كان الله تعالى قد فضّل بعضهم على بعض في رزق الدنيا، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا. وهكذا يتمدد المدى الزمني الذي يدخل في اعتبار المؤمن عند اتخاذ القرار والترجيح بين الأعمال الصالحة، عند التزاحم، ليشمل كلفة وفائدة عمله في الدار الآخرة . إن هذا الاعتبار يؤدي إلى نتائج في التحليل هي نقيض تلك التي يثبتها النموذج الدنيوي حيث المصالح العاجلة دائماً مقدمة على المصالح الآجلة. لقد أثبتت النظريات الغربية في مجال الفعل الاجتماعي أنه كلما امتد المدى الزمني في التحليل كلما تحولت النتائج لصالح التعاون بين الناس بدلاً عن المنافسة، لأنه أجلب لمصالح الجميع ، وكلما أصبحت المصالح الآجلة أعظم من العاجلة، والتخطيط الاستراتيجي أجدى في تحصيلها. ونحن نجد أن فضاء العمل الصالح في النموذج التوحيدي هو فضاء التعاون على البر والتقوى.

إن مبدأ المؤمن الراشد كأداة تحليلية تؤيده الكثير من الآيات، منها: *(وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً)*(سبأ، 36)، *(إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم)*(التغابن، 15)، *(أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون)(المؤمنون، 61)*، *(ولكلٍ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات)*(البقرة، 148)، *(ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)*(فاطر، 32)، *(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)*(المطففين، 26).

لدينا إذن أربعة نظم جزئية أساسية ينبغي تحليلها لبسط فضاء العمل الصالح فيها من خلال تتبع مقاصد الشارع في جميع تفاصيلها، ثم تحديد العمل الراشد المناسب لتحقيق تلك **المقاصد**. متغير العلم يعبر عن النظام المعرفي، ومتغير النفس يعبر عن النظام التربوي، ومتغير المال يعبر عن النظام المالي، ومتغير البنين يعبر عن النظام الاجتماعي. لكن متغير المال في القرآن يعبر عن نظام يمكن تقسيمه إلى نظامين منفصلين بصورة تسمح بتناول كلٍ منهما بدراسة مستقلة ثم الجمع بينهما، وهما: الموارد الطبيعية (القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، الخيل المسومة، الأنعام، الحرث)، والبيئة الداعمة لوجودها عموماً، ونطلق على هذا الجزء النظام البيئي؛ ثم النظام الاقتصادي ممثلاً في التوظيف البشري للموارد الطبيعية (وما عملته أيديهم). إذاً نحن بإزاء خمسة نظم جزئية هي: النظام المعرفي، النظام التربوي، النظام البيئي، النظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي. قد يطرأ سؤال هنا عن متغير الإيمان وما إذا كان يستقل بنظامه العقدي الجزئي كبقية المتغيرات، والإجابة هي أننا افترضنا الإيمان دالة في بقية المتغيرات (النفس، العلم، المال، البنون)، فهو إذن لا يستقل عنها بنظام، بل تغيراته تفسّرها تفاعلات وتغيرات تلك المتغيرات. ولكن الإيمان كمتغير يستقل بحفظه عنها، إذ يمكن التضحية بالنفس والمال والولد في سبيل حفظ الإيمان.

إذا كانت النظم الجزئية الضرورية المكونة للمجتمع التوحيدي هي أربعة، أو خمسة إذا فصّلنا النظام المالي إلي بيئي واقتصادي، فقد أكدنا أن نظام المجتمع الكلي الذي يوحدها يزيد على مجموعها، وحفظ آحادها لا يغنى عن حفظه، بينما حفظه ضروري لحفظها. ومجتمع التوحيد هو الدين بمعناه الشامل، في طرفه الأدنى، وهو بهذا الاعتبار يضم النظام السياسي بكل مكوناته(التشريعية، التنفيذية، العدلية، الأمنية)، ودوره أن يعين النظم الجزئية الضرورية الأربعة على أن تعمل في اتساق داخلي وبيني. إذاً لزم أيضاً بسط النظر المقاصدي في تفاصيل النظام السياسي المساعد لضمان أن يلعب دوره التنسيقي بكفاءة تامة، والمدخل هنا سوف يتعلق بالمصالح العامة والعمل الصالح الكفائي.

هكذا ينبسط العمل الصالح في كافة النظم الجزئية وفي تفاعلاتها البينية وفي النظام الكلي، والمطلوب اجتهاد كثيف لإنتاج علوم في مجال السنن الحاكمة لزينة الحياة الدنيا باعتبارها مادة المقاصد، وإنتاج علوم في مجال الفعل الاجتماعي الراشد ومؤسساته باعتباره وسيلة تحقيق المقاصد، وبالطبع مواصلة الاجتهاد في مجال الأحكام الفقهية باعتبارها العلم الذي يبين حكم الشارع في الأفعال المختلفة، سواء كانت أحكام تكليف أو أحكام وضع.

دروس مستفادة للمشروع الإسلامي في السودان

الدرس الأول ، هو أن حقيقة الدين في الواقع، من حيث الزمان والمكان، إن هي إلا هذا التفاعل بين المتغيرات السبعة المنتجة للظاهرة الإجتماعية، ومآلاته من حيث حفظ ميزان التفاعل على الصراط المستقيم، أو الانحراف به نحو سبل أخري. لذلك فإن حفظ الدين على الدوام كأولوية في مقاصد الشريعة إن هو إلا حفظ هذا التفاعل ليكون على صراط الله المستقيم، وأما الدين المعيار فهو محفوظ بحفظ الله له في كتابه القرآن، ولم يكل حفظه إلى أحد من الناس.

الدرس الثاني، هو أنه لا أمل في أي تقدم تأسيسا على الإسلام إلا بمعرفة هذه المتغيرات المتفاعلة، كمّا ونوعا، في الزمان والمكان، و العلم بحقيقة التفاعل الجاري بينها، والهيمنة عليه بالعلم التوحيدي، لإقامة الوزن بالقسط بين هذه المتغيرات على الدوام.

الدرس الثالث، الأولوية المطلقة للعلم التوحيدي وإنتاجه، وللنفس وتزكيتها بالتربية، لأنّ هذين المتغيرين وحدهما المسؤولان عن نوع ناتج التفاعل بين المتغيرات، والاتجاه به نحو الصراط المستقيم، أو نحو السبل الأخري. فالعلم التوحيدي وحده الذي به نعلم حقيقة المتغيرات المنتجة للظاهرة الاجتماعية، وطبيعة التفاعل الحادث بينها، والاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه هذا التفاعل، والسياسات اللازمة لذلك. ويتطلب ذلك إنتاج نظام معرفي توحيدي يكون قادرا على توجيه جهود البحث العلمي لإنتاج علوم متخصصة تمكّن، عبر السياسات المناسبة، من الهيمنة على التفاعل المنتج للاجتماع الإنساني. وتزكية النفس لتتحقق بأخلاق التقوى في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا يحتاج إلى نظام تربوي يتأسس على علم التربية الذي ينتجه النظام المعرفي التوحيدي.

الدرس الرابع، هو أنه في إطار أولوية إنتاج العلم التوحيدي ينبغي أن تعطى الأولوية لإنتاج نموذج نظري للمسلم الراشد يمكّن من التنبؤ بكيف يتصرف في جميع المواقف التي تواجهه في الحياة، في الزمان والمكان، ومن ثم دراسة النظام الاجتماعي، بمكوناته المختلفة، الذي يمكّن المسلم الراشد من أن يأتي بالفعل الاجتماعي على وجهه المتوقع منه نظريا.

الدرس الخامس، هو أن جميع الخطوات السابقة لا سبيل إلى تحقيقها إلا بالاهتمام المطلق بقضية التأصيل المعرفي، لا سيما تفجير الطاقات العلمية للوحي الكريم، لأنه المنشئ للنظام المعرفي التوحيدي، والمحدد للقواعد المنهجية التي تسير به نحو الكون الاجتماعي والطبيعي لإنتاج العلوم التوحيدية.

الدرس السادس، هو أن النموذج الدنيوي، بحقيقته التي بينها القرآن، يشكل حضورا دائما، ويحدث تأثيرا قد يكون قويا أو ضعيفا بحسب استجابة النفس لدواعيه لتمكّن أو ضعف الهوى فيها، في حياة الفرد والمجتمع المسلم. ولما كانت الحضارة الغربية، المؤسسة على النموذج الدنيوي هذا، قد أنتجت علوما كثيفة ومتقدمة متعلقة به، على المستوى النظري والتطبيقي، في المجالين الطبيعي والاجتماعي، فإنّ من الحكمة الاستيعاب التام لهذه العلوم والاستفادة القصوى منها في دراسة الأثر السلبي والإيجابي الذي أحدثه ويمكن أن يحدثه هذا النموذج في حياتنا الفردية والجمعية، و أيضا الاستفادة منها في معرفة الآخر كما يرد في النقطة التالية.

الدرس السابع، النموذج الدنيوي المقابل للنموذج التوحيدي يمثل جوهر الحضارة الغربية المادية المتعولة، وهو بحقيقته التي وردت في القرآن وبعلومه التي أنشأها الغرب يمثل أساسا منهجيا متينا لدراسة هذه الحضارة وكيفية التعامل معها، والتنبؤ بمآلاتها، والحذر من السير على خطاها.

تم بحمد الله

بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم
معهد إسلام المعرفة(إمام)/ جامعة الجزيرة
التاريخ: 2010/01/23